العقل بين العلم والعمل

بقلم
الدكتور: محمد مصطفى هدارة

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

كان لحديث النظر والذوق والخلق الذى دار بين الشيخ المرشد وبين مريده المسترشد فى المجلس السابق أثر أى أثر فى عقل هذا المريد وقلبه وعمله : فقد انصرف عن شيخه المرشد فى ذلك اليوم وهو أشد ما يكون امتلاء بالأفكار والأنظار وبالأذواق والأخلاق ، التى كانت مدار ذلك الحديث فى ذلك اليوم ؛ ولم يكد يخلو إلى نفسه منذ ذلك الحين إلى أن عاد إلى شيخه اليوم ، حتى أعمل عقله وقلبه وضميره فيما امتلأ به من هذه الأذواق والأخلاق ، ومن تلك الأفكار والأنظار فإذا هو يتدبرها ويتدبر بها ، وإذا هو يستكنهها وينهل منها ، وإذا هو يمازجها ويروض جوارحه وجوانحه عليها ، حتى أصبح فى غدواته وروحاته ، وفى حركاته وسكناته ، وفى نظراته وخطراته ، أسيرا لها لا يبرحها ولا ينفك عنها . ومن هنا نراه وقد سأله شيخه عن حاله وعما جرى له مع نفسه بعد أن فرغ من حديثه معه إلى حديثه مع نفسه ، يجيب شيخه بقوله :

لقد والله خرجت من عندك بعد حديثنا السابق ، وأنا أحرص ما أكون على أن أعود إليك أقوم مما كنت قبلا ، وأهدى مما أنا سبيلا ، تحقيقا لما ختمت به حديثك ذاك من دعاء ورجاء . وها أنذا قد عدت اليوم راضيا مطمئنا واثقا من أنك ستجدنى منذ اليوم عند دعائك لى ورجائك فى : ذلك بأنى قد عولت

فى حياتى النظرية والروحية والعملية على أن اصطنع ذلك المنهج الذى أجملته لى فى ثلاث هى : النظر العقل السليم ، والذوق القلبى المستقيم ، والخلق النقى القويم : وأخذت أفكر وأنظر ، وأتذوق وأشعر ، وأعمل وأدبر ، على هدى من ذلك المنهج الذى أحسبنى قد أصبحت معه أكثر استعدادا لتحقيق المثل الأعلى الذى تريدنى على أن أحققه على يديك .

وهنا تهلل وجه الشيخ المرشد بشرا ، آية على حبه لمريده المسترشد ، وإيثاره له ، وإعجابه به ، ورضاه عنه وعما يسمع منه ، ثم قال له :

هنيئا لك يابنى ما عولت عليه ، وما وصلت إليه ، فليس أدعى لسعادتى ، ولا أبعث على بهجتى ، من أن أراك فى حياتك العلمية والعملية موفقا ، ومن أن تكون للمثل الأعلى فى هذه الحياة محققا . على أننى أحب أن أنبهك إلى شىء يجب أن تتنبه إليه ، وتحذر منه ، وتتجنب الوقوع فيه أو الخضوع له ، وأعنى بذلك الشىء الفتنة التى تدفع الإنسان إلى حيث يخيل إليه أنه قد وصل من العلم إلى أقصى نهاياته ، وانتهى فى العمل إلى أسمى غاياته ، وأنه لم يعد فى حاجة إلى أن يستزيد من علم أو يجود فى عمل . ذلك ما أعيذك منه ، وأربأ بك عنه ، وألح عليك فى أن تجنب نفسك السبيل إليه . واعلم يابنى أنك مهما علمت ، ومهما أصبحت فى نظر نفسك وفى نظر الناس عالما ، فأنت مع ذلك مازلت جاهلا ، ومن يدريك فلعل الذى تعلمه إذا قيس إلى الذى تجهله فلن يكون شيئا . واعلم يابنى أيضا أنك مهما اطمأننت إلى نفسك ، وإلى أنك تسلك فى عملك مسلك الرجل الفاضل الذى تخلى عن الرذائل وتحلى بالفضائل ، فستظل هنالك مع ذلك فضائل لم تعرفها ولم تتحقق بها ، ومن يدريك أيضا فلعل الذى تجهله من هذه الفضائل ولم تتحقق به بعد إذا قيس إلى الذى علمته وحققته ، وجدت نفسك معه مازلت فى حاجة إلى البحث عنه ، والتماس السبيل إليه ، ومحاولة الاستزادة منه والتحلى به : فإياك إياك يابنى أن يفتنك علمك عن جهلك ، وأن تشغلك فضيلتك عن رذيلتك وأن يلهيك ما استقام منك عما لا يزال معوجا فيك .

وهنا وقف الشيخ عن الكلام ، إذ بدا له أنه قد استرسل واستطرد مع

مريده المسترشد ، وأن هذا الاستطراد وذلك الاسترسال ، وإن كان المحور فيهما من ألزم ما يلزم فى رياضة المريدين وتهذيبهم ، وفى تقويم عقولهم وقلوبهم ، إلا أنه قد يبعد عن الموضوع الذى اتفق الشيخ ومريده على أن يديرا حوله الحديث فى هذه المرة ، كما أبعد عنه فى المرات السابقة . ولهذا استدرك الشيخ قائلا :

ولكن . . . نعم . . . ولكن : أين نحن مما اقترحت أنت فى حديثنا السابق ووافقتك عليه من اصطناع التحديد فى الموضوع الذى يدور عليه الحديث وفى المنهج الذى يتناول به ذلك الموضوع ؟ ألا تذكر أن موضوعنا اليوم هو العقل وطبيعته ، وأننا سندير حديثه على طريقة السؤال والجواب ، فتسأل أنت وأجيب أنا ، حتى يتبين وجه الحق فى حقيقته ؟ .

قال المريد المسترشد :

بلى ، أذكر ذلك ياسيدى ، وأذكر أيضا أنى أنا الذى اقترحته .

قال الشيخ المرشد :

وإذا كنت تذكره ، فلم لم تكن عنده ، ولم لم تذكرنى به ؟ .

وهنا ابتسم المريد المسترشد ، وقال :

لأنك تأخذنى بما فى حديثك من روعة ، وتملك على عقلى وقلبى بما يثيره هذا الحديث من متعة ، ولأنك حين تطلق نفسك إطلاقا و وترسل حديثك إرسالا ، فإنما تفتح لى من أبواب النصح والرشاد ، وتتيح لى من وسائل النجح والسداد ، وذلك على وجه أوسع وأنفع — استغفر الله — بل على وجه أروع وأمتع ، مما لو فتحت من أبواب ، وأتحت من وسائل ، حين يكون موضوع الحديث محددا ، وتكون أنت فى هذا الحديث متيدا .

قال الشيخ المرشد :

دعنا من هذا الكلام الآن ، وهلم بنا إلى موضوعنا ، ندير حوله الحديث بيننا ، فقد آن لنا أن نقبل عليه ، وأن نعرض له .

قال المريد المسترشد :

لعل أول مايجب أن نعرض له من موضوع حديثنا اليوم وهو العقل ، هو أن نعرف ما هو هذا العقل ، وهل من سبيل إلى تعريفه تعريفا جامعا ما نعا يكشف عن حقيقته ، ويظهرنا على طبيعته ؟

أجاب الشيخ المرشد فقال :

الحق أننا نجد للعقل تعريفات عدة ومتفاوته ، تتعدد وتتفاوت بتعدد أصحابها وتفاوت الواضعين لها ، وتختلف أو تأتلف باختلاف أولئك وهؤلاء أو بأتلافهم حول نوع العقل الذى يعرضون له ، ويقصدون إلى تعريفه :

فهنا لك الجمهور من العامة ؛ وهنا لك العلماء الطبيعيون من أصحاب الواقع المحسوس الذين يعولون فى علومهم ومعارفهم على المنهج التجريبى القائم على المشاهدة الحسية والتجربة العملية ؛ وهنا لك الفقهاء من أهل الظاهر الذين يصطنعون منهجا قوامه النقل والعقل ؛ وهنا لك المتكلمون من أرباب الجدل الذين يقيمون علمهم على دعائم من الأنظار العقلية إلى جانب ما يقيمونه عليه من النصوص المقدسة الدينية ؛ وهنا لك الصوفية الذين يصلون إلى العرفان عن طريق الذوق والعيان ، وتنكشف لهم حقائق الأمور بنور يقذفه الله فى قلب الانسان ؛ وهنا لك الفلاسفة المتخصصون بالعقل على الحقيقة ، المصطنعون للمنهج العقلى الخالص فيما هم بسبيله من كشف عن الحقيقة ؛ وهنا لك الحكماء الإشراقيون الذين يوغلون فى البحث النظرى اعتمادا على العقل من ناحية ، وفى الكشف الصوفى استمدادا من الذوق الروحى من ناحية أخرى ؛ وكل أولئك قد اصطنعوا العقل كثيرا أو قليلا ، وعرضوا له هنا أو هناك فى مواطن مختلفة من أقوالهم ومناهجهم ومذاهبهم ، ولكننا لانكاد نجد لهم ، بل لانكاد نجد للفريق الواحد منهم ، تعريفا واحدا يجمع عليه أفراد هذا الفريق الواحد ، أو أفراد تلك الطوائف جميعا . وإنما الذى نجده هو طائفة من التعريفات تتعدد بتعدد طوائف المعرفين وتختلف باختلاف أفرادهم ؛ ومن هنا ترى أنك لكى تصل فى ما هية العقل وحقيقته إلى ما يشبع رغبتك ، ويرضى حاجتك ، فلا بد لك من أن تلم وتحصى ، ومن أن تستقرئ وتستقصى ، ومن أن تحاول أن تلتمس أوجه الشبه وأوجه الخلاف ، سواء بين تعريفات العقل ، أو بين طوائف المعرفين .

قال المريد المسترشد :

أفهم من هذا أن تعريف العقل تعريفا جامعا ما نعا ، وعاما شاملا ، ومقبولا لدى الناس جميعا ، أو لدى سوادهم الأعظم بصفة خاصة ، أو لدى خاصتهم من أصحاب العلم وأرباب العرفان بصفه أخص ، ليس من السهولة واليسر بحيث نجده ، أو نجد السبيل إليه .

قال الشيخ المرشد :

نعم ، هو كذلك .

وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وقد تعددت أصناف المطالب والطالبين ، وتنوعت ألوان المعارف والعارفين ، واختلفت طرق أولئك وهؤلاء فى الوصول إلى مطالبهم ، والحصول على معارفهم ! وهاهوذا أبو حيان التوحيدى قد نقل عن أبى سليمان المنطقى كلاما كنت أقرؤه قبل أن تحضر إلى ، ومن عجب أن يكون هذا الكلام متصلا بما نحن بسبيل الإبانة عنه من حقيقة العقل وطبيعته . وليس من شك عندى فى أنك لو قرأت معى الآن بعض ما نقله أبو حيان عن أبى سليمان ، لا سيما حديثه الرائع الممتع الذى أجمل فيه معارف الناس وقسم أصولها ، لعرفت كثيرا من المعارف ، ولوقفت على كثير من اللطائف ، التى تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع حديثنا اليوم . وإليك مقابسات أبى حيان ، استخرج منها المقابسة الخامسة والعشرين ، ثم اقرأ بلسان عربى سليم وبصوت واضح مبين .

وهنا أمسك المريد المسترشد بالمقابسات ، وجعل يقرأ كلام أبى سليمان فإذا هو يقول :

« معارف الناس بالقول المجمل على التقريب تنقسم أصولها إلى : الظن والوهم ، والحدس والعقل ، واليقين والشك ، والغالب والسابق ، والايهام والايحاس ، والخاطر والسانح واللائح . ثم إن هذه كلها تتخالف مرة وتتلابس أخرى ، وتراآى مرة وتتوارى . ولن يخلص مطلب من المطالب ، ولا مذهب من المذاهب ، من شوب مثلها ، على قدر القلة والكثرة ، والضعف والقوة ، واللين والشدة ، وعلى حسب المزاج والهيئة ، والخلط والطبيعة ، والمنشأ والعادة ؛ وعلى ما يعجب

الإنسان من استبداده أو تقليده ؛ ولو خلص مظنونه من موهومه ، وتميز محسوسه من معقوله ، وانفصل معلومه من مجهوله ، وبان ملتمسه من هواه ، لكان لا يدخل الظن فى العلم ، ولا يدب الحس فى العقل ، ولا يتفشى العقل فى الحس ، ولا يكدر الحق بالباطل ، ولا يصفو الباطل بالحق ، ولتوضحت الأشياء بأعيانها ، ونقيت من أدرانها ، وزال شك الناظر فى أثنائها ، ووقع على حقائقها وأنبائها ، وعاد ثلج الصدر باليقين ، معمور النفس بالسكون ، غنيا عن تأليف القياس والبرهان وتصنيف فنون القول والبيان .

« ولكن الإنسان مضروب بالظن والحدس ، ومصنوع بالعقل والحس ، ومردد بين النقص والزيادة ، ومعرض فى كل وقت للشقاوة والسعادة ، لا فكاك له من جميع ذلك مادام فى مسكه الطبيعى ، وعقله الجزئى ، وجهله الكلى ، اللهم إلا أن يلبسه الله لباس الرحمة ، ويغشيه غشاء العصمة ، فحينئذ إن قال قال الصواب وإن فعل فعل الواجب ، وإن اعتقد اعتقد الحق ، وإن هم هم بالخير ، وإن نوى نوى الجميل ، وإن حث حث على الصلاح ، وإن زجر زجر عن الفساد ، وإن لحظ لحظ العلو ، وإن غض غض عن السفل .

« فقال له بعض الحاضرين : فكأنه يفارق الطبيعة البشرية ، وينسلخ من العوائق العنصرية ؟

« فقال : يفارقها من وجه ، ولا يفارقها من وجه : يفارقها بأن يميت هواجسها إماتة ، ويسكن سوانحها تسكينا ، ويخمد لواهبها إخمادا ، ويقتدر على بلوغ هذه الغاية اقتدارا ؛ ولا يفارقها بأن يبقى إنسانا لا طبعة له ولا مزاج ولا بشرية ؛ هذا ما لا يجب ولا يكون ، وقدر ما أمكن من ذلك قدرا يجاوز كل أمنية ، ويشرف على حال سنية ؛ وهذه هى حال الفلاسفة الكبار ، وحال البررة الأخيار ، وحال من قد خصه بالزلفى ، وأناف به على الذروة العليا . . . »

وهكذا قرأ المريد المسترشد بين يدى شيخه المرشد هذا الكلام الذى نقله أبو حيان عن أبى سليمان ، ولم يكد يفرغ من قراءته تلك ، حتى ابتدره الشيخ بقوله متسائلا ومعقبا فى آن واحد :

أرأيت إلى أبى سليمان ، كيف كان من دقة التبيين وروعة البيان ، وبراعة التقسيم والتصنيف ، ومهارة التعرف والتعريف ، بحيث استطاع أن يقدم إلينا فى هذه العبارة الموجزة المؤتلفة ، والفقرات المركزة المتسقة ، ألوانا من العلم ، وضروبا من العرفان ، وفنونا من العمل ، منها ما يصدر عن الحس ، ومنها ما يصدر عن العقل ، ومنها ما يستمد من القلب ، ومنها ما يحصل عن التآلف الذى يقع بين بعض هذه الملكات وبين بعضها الآخر ؟

ثم ، أرأيت إلى أن أصول المعارف الإنسانية التى قسمها أبو سليمان ها هنا على وجه الإجمال ، إنما يشير كل أصل منها إلى علم من العلوم الواقعية أو العقلية أو النقلية أو الذوقية وكلها علوم تتفاوت حظوظها من الإقبـــال على العقل أو الإعراض عنه ، الأمر الذى أراني معه مضطرا إلى أن أحيلك على الآثار الخصبة القيمة التى خلفها العلماء والفقهاء والمتكلمون والصوفية والفلاسفة والحكماء الاشراقيون وأن أخلى بينك وبين هذه الآثار ، تخوض غمراتها ، وتقتحم عقباتها ، وتستخلص منها ماشئت أن تستخلص من المعانى المؤتلفة أو المختلفة ، وتخلص منها إلى ماشئت أن تخلص إليه من وجهات النظر المتقاربة أو المتباعدة ، حتى إذا تهيأ لك من هذا كله حظ موفور ، وعدت إلى عند حديثنا المقبل ، وقفت معك عند بعض التعريفات التى عرف بها العقل ، والتى سأذكرها لك ، وأعرضها عليك ، على سبيل المثال لا الحصر ؛ فلعلك أن تجد فيها بعض ما يعينك على أن تتعرف ماهية العقل ، وتستكشف حقيقته ، وتستشف طبيعته ، على وجه إن لم يكن شاملا لكل المعانى من كل الوجوه ، فلا أقل من أن يكون ملما بها ، أو مشيرا إليها ، من أكثر الوجوه ، ولعلنى أستطيع بعد ما قدمت إليك ، وبعد ما سأعرض عليك ، أن أنتهى معك إلى الكشف عن المعانى النظرية والروحية والعملية للعقل وهى هذه المعانى التى أحب أن أقرها فى عقلك وقلبك وضميرك ، وأن تؤثرها وتتخذ منها قواما لمنهجك ومذهبك ، سواء فى قولك ونظرك ، وفى علمك وعملك .